في فرنسا، يكشف لهم جميعاً عن خطل السياسة الفرنسية في بلاده؛ غير أن صرخاته ذهبت تهب الرياح، فكبر عليه أن يعمل مع حكومة تسير على مبدأ لا يقرّه، فنبذها جانباً، ولبس ثوب المحاماة.

وفي أواخر سنة ١٩٣٠ عين رئيساً للتراجمة في بلدية الأسكندرية فترك بلاده ومهنته ليستقر في الوطن الثاني الجميل ... في مصر، وليجد هنا أصدقاء أحباء يعوضونه ما فقده في وطنه الأول

تلك لمحة عاجلة عن حياة الأستاذ الفقيد فيها عظة وحكمة

* * *

لم يكن للأستاذ فليكس أن يكبح جماحات نفسه، بعد إذ لمس الإخفاق في وطنه الأول، وهو قد هبط وطنه الثاني شعلة من نشاط تتقد، فاندفع يتعرف على جماعة من أدباء هذا المصر ... ثم قرأ للأستاذ الزيات — أطال الله عمره — وجمع أعداد (الرسالة) لا تفوته فيها شاردة ولا واردة؛ وعكف على دراسة أدب الرافعي — رحمه الله — حين استهوته مقالاته في (الرسالة)؛ وترجم له مقالته «رؤيا في السماء» إلى الفرنسية وعلق عليها، ونشرها هي والتعليق في غير واحدة من الجرائد الفرنسية، وأعجب بماهلي الأدب العربي الحديث وتمنى لو رآهما

وفي صيف سنة ١٩٣٦ تعرف إلى الأستاذ الرافعي — رحمه الله — وطلب إليه أن يزوره في داره في كامب سيزار برمل الأسكندرية فلبى الدعوة وأنا برفقته ... فألفيت رجلاً هادىء الطبع، طلق المحيا، كريم الخلق، جميل الصحبة. وكان وجهه — ونحن في داره — يتهلل بشراً وسروراً ... وهكذا ابتدأت أول وشيجة بينه وبين أسرة (الرسالة) الغراء، ومضت أيام فإذا صوت صرير قلمه يرن على صفحات (الرسالة)

ثم انطلق يتلمس الطريق إلى الأستاذ الزيات ويستزيره في إلحاح. وفي صيف سنة ١٩٣٧ دخل الأستاذ الزيات دار صاحبه فليكس — لأول مرة — وأنا إلى جانبه. يا عجبا! إنني أرى صاحب الدار يهتز من فرط الفرح كأنه يلاقي حبيباً طال اغترابه؛ وإنه ليتراءى لي أنه يهم أن يضم الأستاذ الزيات إليه لولا هيبته. وتقدمت الأيام وفي قلب كل منا لصاحبه المحبة والإخلاص والوفاء

عرفنا الأستاذ فليكس فعرفنا فيه الأديب الفذ والشاعر الرقيق، وفقدناه ففقدنا فيه الأخ الوفي والصديق الصادق

ففي ذمة الله، وفي رحمة الله ... يا صديقي!

كامل محمود حبيب

في بلاط الخلفاء

حماد وهشام بن عبد الملك

للأستاذ علي الجندي

ضمّت الكوفةُ في وقت واحد ثلاثة نفر يُقال لهم: الحمادون[1]، وهم حماد عَجْرد، وحماد الراوية، وحماد الزِّبْرِقان أو ابن الزبرقان. كان هؤلاء الثلاثة يتعاشرون بثلاثة أجساد تُصرِّفها روح واحدة. ولم يكن غريباً أن يجتمعوا على هذا الود الوثيق، فقد ألفت بينهم رابطة الأدب، ولحمة الزندقة، وآصرة أخرى تُساوي رضاع الثدي وهي رضاع الكأس! ولله دِعْبل إذ يقول:

أذكرُ أبا جعفر حقًّا أمتُّ به ... أني وإياك مشغوفان بالأدب

وأننا قد رضعنا الكأس دِرَّتها ... والكأسُ دُرَّتها حظ من النسب

والذي يعنينا من هذا الثالوث العجيب المتّحد في الاسم والنزعة والهوى والنِّحلة، حماد بن ميسرة الديلمي مولى بكر بن وائل. كان هذا الرجل آية دهره في العلم بأنساب العرب وأيامها وحفظ لغتها وأخبارها وأشعارها، فخلع عليه معاصروه — على بخل المعاصرة وحقدها — لقب الراوية؛ وهو لقب فخم رفيع لم يُمنحه جُزافاً بل انتزعه انتزاعاً عن استحقاق وجدارة

يحدثون أن الوليد بن يزيد سأله: بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية؟ فقال: لأني أروي لكل شاعر تعرفه — يا أمير المؤمنين — أو تسمع به، ثم أروي لأكثر منهم ممن أعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به، ثم لا أُنشد شعراً لقديم ولا مُحدث إلا ميزت القديم منه من المحدث. فقال الوليد: إن هذا لعلم — وأبيك — كبير. فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال: كثير. ولكنني أنشد على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة طويلة، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام!

وكأن الوليد استراب بحفظه فقال: سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد، فأنشده حتى نال منه الضجر! فوكل به من يسمع

(١) معجم الأدباء ج — ١٠ — ٢٥٠ — ٢٥٩

منه ، واستحلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة جاهلية، ورفع الأمر إلى الوليد، فأجازه بمائة ألف درهم

ولكن مما يحزّ فى النفس أن حماداً لم يكن متحلياً بتلك الشرائط التى تعدّ قِوام الرواية من أمانة وصدق وإخلاص !

فقد شاء ألا يقنع بما أفاء الله عليه من مواهب عالية ، وبما حصّله بجهده من ثروة أدبية ضخمة تتقطع دونها أعناق الفحول ! فاستغلّ حفظه للشعر وبصارته بمنازع الشعراء ، وقدرته على النظم ، ودقة مسلكه فى التقليد ، وغرامه بالتزيّد فى الوضع والتلفيق والتدليس ! فكان يقرض الشعر وينحله مَن يشاء من شعراء العرب ، ويجوز ذلك على أكثر الناس لفرط المشابهة بين الأصيل والدخيل !

ومن السهل على من رُزق علم حماد وقوة طبعه وحدة قريحته وبارع زكانته ، أن يفعل مثل فعله لا فرق بين متقدم ومتأخر !

يقول الثعالبي[1]: إن الصاحب يوماً قال لجلسائه — وقد جرى ذكر أبي فراس الحمْداني — : لا يقدر أحد أن يزوّر عليه شعراً . فقال البديع الهمذاني : ومن يقدر على ذلك وهو القائل :

رويدَك، لا تصِل يدَها بباعك ... ولا تُغرِ السباع إلى رباعك
ولا تُعِن العدوّ عليّ إني ... يمينٌ إن قطعتَ فمن ذراعك

فقال الصاحب : صدقت ! فقال البديع : أيد الله مولانا قد فعلت ! — أي زوّرت عليه —

والغريب فى أمر حماد أنه كان لا يستحي أن يتبجح بهذا الضلال البعيد ! فكان يقول[2] : ما من شاعر إلا أدْخلت فى شعره أبياتاً حُملتْ عنه إلا أعشى بكر فإني لم أزد فى شعره قط غير بيت واحد . فقيل له : ما هو ؟ قال :

وأنكرتْني وما كان الذى نَكِرتْ
من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وأغرب من هذا أن جرأته كانت تطوّع له الكذب على الخلفاء المعروفين بدقة الفطنة وسعة المعرفة ! فقد روى صاحب الأغاني بسنده عن جماعة ذكر أنهم كانوا فى دار الخليفة المهدى إذ خرج بعض أصحاب الحاجب فدعا بالمفضل الضبيّ الراوية ، فدخل فمكث مليّاً ثم خرج ومعه حماد الراوية وحسين الخادم ، وقد بان فى وجه حماد الانكسار والغم ، وفى وجه المفضل السرور والنشاط . ثم نادى الخادم : يا معشر مَن حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يُعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ما ليس منها. ووصل المفضّل الضبي بخمسين ألف درهم لصدقه وصحة روايته . فمن أراد أن يسمع شعراً مُحدَثاً فليسمعْ من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليسمعها من المفضل

وقد كان السبب أن المهدى قال للمفضل — لما دعا به وحده — إني رأيت زهير بن أبي سُلمى افتتح قصيدته بأن قال :

دع ذا ، وعدِّ القولَ فى هَرِم ... خير البُداة وسيد الحضْر

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذى أمر نفسه بتركه ؟ فقال المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين فى هذا شيئاً ، إلا أني توهمته كان يفكر فى قول يقوله ، أو يُروِّي فى أن يقول شعراً فعدل عنه إلى مدح هرم وقال : دع ذا . أو كان يفكر فى شيء من شأنه فتركه وقال: دع ذا. أي دع ما أنت فيه من الفكر وعدّ القول فى هرم. فأمسك عنه المهدى ودعا بحماد فسأله فى ذلك . فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين . قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لِمن الديارُ بقُنَّة الحِجْر ... أقْوين مُذْ حِجَجٍ ومذ دَهْر
لعب الزمانُ بها وغيّرها ... بعدى سوافي[1] المُور والقطْر
... ...

دع ذا ... الخ

فأطرق المهدى ساعة ثم أقبل عليه فقال : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لابد من استحلافك عليه ! ثم استحلفه بأيمان البيعة — وكل يمين مُحْرِجة — ليَصْدُقَنَّه عن كل ما يسأله عنه . فحلف بما توثق منه . فقال له : اصدُقْني عن حال هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير . فأقرّ له أنه قائلها . فأمر فيه وفى المفضل بما أمر به من شهرة أمرها وكشفه

هذا الضعف الخُلُقى الذى عُرِف به حماد هو ما حدا الأصمعي أن يقول فيه : كان حماد أعلم الناس إذا نصح (يعني إذا لم يزد وينقص) وكذلك قال فيه المفضل الضبي : قد سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلُح بعده أبدا ! فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئُ فى الرواية أم يَلحَن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردّون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال

(1) اليتيمة ج ١ ص ٧٠
(2) العقد الفريد ج ٣

(1) السوافى : الرياح والمور : التراب

يقول الشعر يُشَبِّه به مذهبَ رجل ويدخله في شعره ، ويُحْمَلُ عنه ذلك في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ »

وقد هجا حماداً أحمد بن يحيى[1] هجاء طريفاً يمكننا أن نقف منه على شكله وهيئته وزيه ورأى الناس فيه . قال :

نعم الفتى لو كان يعرف ربَّه ويُقيم وقت صلاته حمّادُ
بسطَتْ مَشافرَه الشَّمولُ فأنفُه مثلُ القَدوم يَسُنُّها الحدّاد
وابيضَّ من شرب المُدامة وجهُه فبياضُه يوم الحساب سواد
لا يُعْجِبنّك بَزّه ولسانُه إن المجوسَ يُرَى لها أسباد

وقد نشأ حماد في العهد الأموى سنة خمس وتسعين هجرية ، وكان أثيراً لدى خلفاء بنى مروان ، يستزيرونه فيفد عليهم ليحدثهم عن أيام العرب وأخبارها وينشدهم أشعارها ، فيظهرون إعجابهم به وينفحونه بالأعطيات السنية

وقد خفَّ على قلب يزيد بن عبد الملك منهم فانقطع إليه واختص به ونادمه ، فحصّل منه دُنيا عريضة وعاش في حال رافهة

ولكن هذه النعمة السابغة كادت تحوُل جائحة مستطيلة لولاما قُدِّر له من طول السلامة ! فقدكان بين راعيه يزيد وأخيه هشام جفوة شديدة مردها إلى أنهما من أبناء العلاّت[2]، فأم يزيد عاتكة بنت يزيد بن معاوية الأموية ، وأم هشام عائشة بنت إسماعيل المخزومية ، وأهم من ذلك أن يزيد كان يريد أن يبايع لابنه الوليد القاصر، فصرفه أخوه مسلمة بلباقة وكياسة إلى مبايعة أخيه هشام الراشد، ولكن يزيد ندم بعد أن تم الأمر، فاستشرت العداوة بين الخليفة وولى عهده حتى اضطر هشام أن يعيش خارج دمشق ، وتبع ذلك أن حقد على حاشية أخيه وبطانته ، ومنهم حماد زينة البلاط ونجمه اللامع !.

فلما آلت الخلافة إلى هشام خافه حماد على نفسه خوفاً شديداً فانزوى في كِسر بيته مدة عام كان في خلالها — إذا ضاق صدره — ينسلُّ في سر من الناس إلى الثقات من إخوانه خائفاً يترقب ؟ ولما انقضت هذه الفترة ولم يتوجه إليه طلب ، ظن أنه قد بلغ مأمنه ، فبرز من مخبئه وصلى الجمعة في الرُّصافة[1] ، ولم يقنع بذلك حتى جلس عند باب يدعى باب الفيل ، وإذا شرطيان كأنما نبعا من الأرض قد وقفا عليه وقالا : ياحماد ، أجب الأمير يوسف ابن عمر (والى العراق) فانخلع قلب حماد من الرعب ، وقرع سِنّ الندم على خروجه ، وتوسل إليهما أن يستأنياه حتى يأتى أهله فيوصي بهم وإليهم ، ثم يصير معهما إلى حيث يريدان ، فأجاباه في خشونة الزبانية : ما إلى ذلك من سبيل ! وأخذا بعضديه ، فاستبسل[2] للموت واستقاد لهما حتى بلغا به الأمير وهو جالس في الإيوان الأحمر ، فسلم عليه حماد بصوت مصحول فكان رد السلام أن ألقى إليه كتاباً فيه ما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر . أما بعد ، فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مُرَوَّع ولا مُتعتع[3] وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دمشق

ففاضت بشاشة الطمأنينة على قلب حماد ، وقبض الدنانير الصفر وقد امتزج لألاؤها ببريق السرور الخاطف على وجهه !

وفي الحق أن حماداً كان مسرفاً في خوفه من هشام ، فقد كان هذا الخليفة غزير العقل راجح الحلم عفيف النفس جامعاً لأدوات الرياسة ، حتى كان الأشياخ يقولون : أُديل من الشرف وذهبت المروءة بموت هشام ! ومن كانت هذه صفاته فكثير عليه أن ينكل بأديب مستضعف كلُّ جريرته أنه كان متصلاً بسلفه

وقد هيئ لحماد جمل مرحول فركبه من ساعته ، وسار يُغِذّ في السير اثنتى عشرة ليلة حتى وافى دمشق ووقف بباب هشام مستأذناً في الدخول إليه ، فأذن له .

[البقية في العدد القادم] علي الجندي

(1) أمالي المرتضى ج ١ ص ٩٠ (2) الضرائر

(1) المراد بها رصافة الشام وهى مدينة في غربي الرقة على طرف الصحراء (خزانة الأدب ج — ٢ — ٣٠١)
(2) استبسل للموت : استسلم له (3) مكره